تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
السداسي: الثالث
ماستر 2
اسم الوحدة: العلاقات الجزائرية الأوربية 2

علاقات الجزائر مع الدول الألمانية – هامبورغ أنموذجا - 1

أ.د. عبد القادر فكاير

تتناول هذه المحاضرة بعض الجوانب من العلاقات بين الجزائر والدول الألمانية وسنتخذ دولة هامبروغ نموذجا وأهم مظهر هذه العلاقات هو عقد معاهدة بين الجزائر هامبورغ الألمانية في بداية عام 1751، ولكن هذه المعاهدة لم يكتب لها الاستمرار لمدة طويلة ، إذ تم إلغائها بناء على ضغوطات إسبانيا بسبب سوء علاقاتها مع الجزائر. فبعدما تمكنت بعض دول شمال أوربا منها السويد، ومملكة الدنمارك- والنرويج، وكانت قد سبقتهما إنكلترا وهولندا في عقد معاهدات سلام مع الجزائر، سعت دولة هامبورغ من جهتها أن تحذو حذو الدول المذكورة لعقد معاهدة سلام مع الجزائر لكي تحمي مصالحها التجارية في جنوب أوربا والبحر المتوسط ، وتضمن تأمين سلامة سفنها خلال إبحارها في هذه المنطقة. وبعد بضع جولات من المفاوضات أجرتها مع الجزائر استمرت لأكثر من عقد، وبوساطة فرنسية، تمكنت هامبورغ من عقد المعاهدة في 2 فبراير 1751، بعدما وافق الهامبورغيون على مطالب حكام الجزائر، حينما اشترطوا عليهم تسليمهم كميات من العتاد الحربي، ومعدات الملاحة والذخيرة. ولما كانت حمولة كميات الذخيرة الحربية في طريقها إلى الجزائر، أثار ذلك غضب إسبانيا التي استغلت كثافة النشاط الاقتصادي لهامبورغ في إسبانيا، فأوقفت جميع تعاملاتها التجارية معها، بل لجأت إلى طرد جميع الرعايا الهامبورغيين الموجودين في إسبانيا. ونظرا لحجم المصالح الكبيرة في إسبانيا اضطرت هامبورغ إلى الخضوع للضغوط الإسبانية ووافقت على إلغاء المعاهدة مع الجزائر والذي تم في شهر نوفمبر1752.

1-نبذة عن دولة هامبورغ وامتداد نشاطها البحري إلى جنوب أوربا:

تعد هامبورغ من أهم الدويلات الألمانية التي كانت قائمة قبل أن تتوحد في دولة واحدة في سنة 1871، فكانت المدن الألمانية قبل ذلك منذ العصور الوسطى منضوية تحت رابطة الهانز"Hanse". بدأ تاريخ ما أصبح يطلق عليه لاحقًا الرابطة الهانزية في القرن الثاني عشر، حيث تمت إعادة بناء مدينة لوبيك (Lübeck) في شمال ألمانيا على ساحل بحر البلطيق سنة 1158، من قبل أدولف الثاني (Adolf II) (1128-1164) كونت هولشتاين (Holstein)، وكان تصميمها المعماري يشبه المراكز التجارية، فأصبحت لوبيك أول مدينة

تجارية في شمال ألمانيا. وأقامت النخب السياسية في ذلك الوقت شراكة مع هامبورغ في عام 1241م بهدف تبادل الثروة والطعام، في إطار تبادل ثنائي صارم بين المدينتين. وقد تم دمج مدن أخرى في هذا التحالف التجاري على غرار"مجتمع التجار الموسميين في جوتلاند" (Communauté des marchands saisonniers de Gotland) التي كانت عاصمتها فيسبي(Visby)، وهي جزيرة في قلب بحر البلطيق، لتكوين رابطة بين المدن التجارية في شمال أوروبا تسمى "هانسا" (Hansa). هذا المصطلح مشتق من الألمانية القديمة هانسا، ومعناه اتحاد أو كونفدرالية. ومع مرور السنين انضمت عدة مدن في ألمانية، مثل بريمن (Brêmen)، برانشفيك (Brunswick) وروستوك (Rostock) إلى هذا التحالف لتشكيل هيكل تجاري من شأنه أن يفيد الجميع. يمكن إحصاء ما يصل إلى 85 مدينة أصبحت ضمن الرابطة الهانزية، وقد تم تمييزها في مجموعتين مرتبطتين بجغرافيتها:المدن البحرية ("Seestädte")والمدن النائية ("Binnenlandstädte") . وقد انضمت بعض المدن في وقت متأخر إلى الرابطة، بينما انسحبت مدن أخرى وفقًا لمصالحها الخاصة) .

بلغت الرابطة الهانزية أوج قوتها وازدهارها في نهاية القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر. وعاشت مرحلة ازدهار ثانية في النصف الثاني من القرن السادس عشر. إلا أن نجمها بدأ في الأفول عندما بدأت تفقد مكانتها وامتيازاتها بناء على مجموعة من العوامل التي أدت إلى اضمحلالها وتراجعها ثم تفككها.

تقع هامبورغ على مصبيْ نهريْ ألستر(Alster) وألبا (Elbe)، ويربطها ببحر الشمال الواقع على بعد نحو مائة كيلومتر، ويعتبر ميناء هذه المدينة بوابة بحرية هامة، نحو بحر الشمال وبالتالي إلى مختلف المناطق ومنها على الخصوص نحو المحيط الأطلسي وإلى البحر المتوسط. ومن العوامل التي دفعت هامبورغ إلى مد نشاط سفنها إلى البحر المتوسط هو أن العصر الذهبي للرابطة الهانزية قد ولى منذ مدة طويلة بعد ظهور قوى جديدة في بحر البلطيق مثل الهولنديين والسويديين والدنماركيين والروس. وقد أغلقت العديد من الأسواق التقليدية أمام سكان هامبورغ. ففي عام 1598، أغلقت الملكة إليزابيث ملكة إنجلترا مكتب ستالهوف (Stalhof)، وهو مكتب الرابطة الهانزية في لندن، عندما زادت الخلافات حول صادرات القماش في نهاية القرن السادس عشر، وكانت إنجلترا في حالة حرب مع الإمبراطور الألماني (الإمبراطورية الرومانية المقدسة).وفي 13 جانفي 1598، أصدرت الملكة إليزابيث مرسومًا بطرد التجار الهانزيين من إنجلترا، اعتبارًا من 24 يناير، وألغت تجارتهم، وأوقفت امتيازات وصادرت المكتب المذكور. بعد ذلك بوقت قصير، منع الملك الدنماركي كريستيان الرابع (Christian IV) سكان البلدة الهانزية من السفر إلى آيسلندا، وفي عام 1615 تم أيضًا إلغاء الامتيازات التجارية في ميناء بيرغن (Bergen) النرويجي المهم. لم يكن أمام ملاحي المدينة خيار سوى البحث عن طرق جديدة. وهذا ما دفعهم إلى التوجه نحو البحر الأبيض المتوسط.

وقد ساهمت حرب الثلاثين عاما في ذلك التراجع، التي جرت وقائعها ما بين 1618-1648 على أراض ألمانية، والتي تدخلت فيها معظم القوى الأوربية الموجودة. وكان سبب اندلاع الحرب أساسا هو الصراع الديني بين الكاثوليك والبروتستانت. وقد سببت تلك الحرب معاناة كبيرة للمدن الألمانية وأوقفت تجارة بحر البلطيق، مما أدى إلى أفول الرابطة، التي عقدت آخر اجتماع لأعضائها في عام 1669.

ومن أجل العناية بالسفن التجارية وحمايتها خلال إبحارها؛ شكلت هامبورغ قافلة في عام 1662، والتي قامت ببناء وصيانة سفن القوافل الخاصة، أي سفن الحراسة المسلحة للأساطيل التجارية. وفي عام 1668، تم الانتهاء من الفرقاطتين الثلاثية الصواري "ليوبولدوس بريموس" (Leopoldus Primus) و"وابن فون هامبورغ" (Wapen von Hamburg)، كل واحدة مجهزة بـ 54 مدفعا. وبحلول عام 1740، أنجزت خمس سفن أخرى من هذا النوع. وقد رافقت ما مجموعه 118 قافلة هامبورغ من 20 إلى 50 سفينة تجارية لكل منها. في ذلك الوقت، كانت هامبورغ المدينة الساحلية الألمانية ذات النشاط التي توجهت إلى مناطق عديدة. فقد ذهبت القوافل إلى إنجلترا وأوروبا الغربية وإسبانيا وغرينلاند (Groenland) وأرخانجيلسك (Arkhangelsk). لم يتم تسجيل العديد من الهجمات على قباطنة قوافل هامبورغ، وربما كانت هذه علامة على فعاليتها.

شهد النشاط البحري الهامبورغي إلى جنوب أوربا انتعاشا خلال حرب الوراثة النمساوية (1740-1748). فبعد عام 1741، عندما بدأت حرب الخلافة النمساوية (1740-1748) تلوح في الأفق بين القوى الأوربية ، بدأ مالكو السفن في هامبورغ في تلقي الطلبات من التجار الدوليين لنقل بضائعهم جنوبًا. فكانت الحاجة إلى قوة محايدة للقيام بالشحن في جميع أنحاء أوروبا التي تزايدت بشكل ملحوظ. بغض النظر عن مدى خطورة البحارة الجزائريين والمغاربيين الآخرين، فقد كانوا دائمًا غير مؤذيين مقارنة بأساطيل قرصنة قوى أوروبا الغربية. وكانت النتيجة أن حدثت طفرة في الملاحة البحرية لهامبورغ في البحر المتوسط وتراجع منافستها الرئيسية جمهورية هولندا.

2- نماذج عن المواجهات البحرية بين السفن الجزائرية والهامبورغية:

كانت للجزائر علاقات مع بعض الدويلات الألمانية، منها تلك التي كانت تدفع ضريبة سنوية للجزائر مقابل حماية سفنها في البحر الأبيض المتوسط؛ ومنها ما كانت لها ممثلين دائمين في الجزائر، مثل هانوفر(Hanovre)، ومنها التي عرضت مبالغ مالية كبيرة من أجل الحصول على جوازات سفر. مثل بروسيا، التي انضمت سنة 1814 إلى الحلف السباعي، ومن الدول المكونة له نذكر هولندا، الدانمارك، إسبانيا، إيطاليا، روسيا، الولايات المتحدة الأمريكية، التي شنت كلها مجتمعة حربا بحرية على الجزائر. ومنها التي عقدت معها معاهدة مثل هامبورغ خلال سنة 1751 .

وقعت مئات المواجهات العنيفة في البحر بين بحارة كل من هامبورغ والجزائر في العصر الحديث، وقد تم أسر ما يصل إلى 4000-5000 بحار من سفن هامبورغ على أرض شمال إفريقيا في أوائل العصر الحديث. في أواخر عام 1746 أرسلت هامبورغ سفينة حربية لحماية سفنها التجارية في البحر الأبيض المتوسط. كان الأمل المستثمر في هذه الجولة عظيماً لكنها انتهت بخيبة أمل شديدة. ففي بداية عام 1747، تلقى الهامبرغريون أخبارًا عن فشل قافلتهم، حيث استولى الجزائريون على 14 سفينة تجارية كانت تحت علم هامبورغ بينما لم تتمكن السفينة الحربية من مساعدتهم .

وتشير بعض الإحصائيات أنه نتيجة للمواجهات البحرية بين السفن الجزائرية والسفن الهامبورغية خلال الفترة ما بين عامي 1719 و 1747، تمكن البحارة الجزائريون من الاستيلاء على 50 سفينة من هامبورغ وحدها وأسروا 633 رجلاً. وفي تلك السنوات لوحدها، دفعت هامبورغ 1.8 مليون مارك بانكو(Mark banco)، العملة الشائعة في المدينة في ذلك الوقت. وقد شهدت هامبروغ في عام 1747 أكبر الخسائر منذ عشرينيات القرن السادس عشر. وفيما يلي نعرض بعض النماذج من المواجهات التي كانت تتم في كثير من الأحيان عند السواحل الغربية لأوربا المطلة على المحيط الأطلسي.

لقد كان تجار هامبورغ في بعض الأحيان يستعملون سفنا لدول مجاورة لبلادهم منها الدانمارك، ويتم رفع راية هامبورغ عليها، وقد حدث في سنة 1724 أن أبحرت سفينة اسمها هوفنونغ (Hoffnung) كان طاقمها أغلبهم رعايا دانماركيون: ثلاثة أتوا من أمروم (Amrum) ، من بينهم هارك أولوفس.(Hark Olufs) واحد من جزيرة فوهر (Fohr) المجاورة، وثلاثة من إلبه (Elbe). كانت السفينة تبحر من مدينة نانت (Nantes) الفرنسية إلى هامبورغ لتفريغ حمولتها. على الرغم من أن هذه المياه كانت تعتبر آمنة، إلا أنه تم الاستيلاء على السفينة المذكورة من قبل بحار جزائري بالقرب من جزر سيلي (Scilly) قبالة ساحل كورنويل (Cornwall) في جنوب غرب إنجلترا. وتم اقتيادها إلى مدينة الجزائر. وقد تم بيع أولوفس في سوق العبيد في الجزائر مقابل 1000 مارك لوبيك؛ ثم أعيد بيعه لشخص آخر، بربح 100 مارك. ثم اشتراه الوكيل التجاري بوكمية لباي قسنطينة، فأصبح أولوفس عبدا لدى الباي قليان حسين باي، ثم أصبح أمين لخزينته بين عامي ما بين (1728- 1732)، ثم قائدا لحرس الباي، بعدها أصبح رئيسا للفرسان المحليين. شارك في الحرب الجزائرية التونسية سنة 1735، بعد ذلك أطلق سراحه، ولم يعد إلى بلاده إلا بعد إثني عشرة عاما قضاها في الجزائر.

وفي بداية أفريل من عام 1725 استولى البحارة الجزائريون على سفينة القبطان هاسنبرغ (capitaine Hasenberg) التي كانت قد غادرت هامبورغ، وكان على متنها العديد من الأشخاص من بينهم كوهن يوهان ميخائيل(Johann Michael Kühns)،البالغ من العمر 25 عامًا، كان الهامبرغيون ذاهبون إلى قادش (Cadix) في جنوب إسبانيا. ولكن قبالة رأس ساو فيسينتي (cabo de São Vicente)،في الطرف الجنوبي الغربي

للبرتغال، توقفت رحلتهم بشكل مفاجئ. عندما تعرضوا لهجوم سفينة كبيرة كانت ترفع علم الجزائر، وقد أسفرت هذه المواجهة عن مقتل العديد من أفراد الطاقم وإلقاء الجثث في البحر.

وتحدث يوهان ميخائيل كوهن في كتابه الذي نشره في مدينة غوتة (Gotha) بألمانيا سنة 1741 هذا عنوانه المختصر"وصف الحياة الغريبة والسفر"(Merkwürdige Lebens- und Reisebeschreibung):عن قضية افتدائه مع ثمانية أشخاص هامبورغيين ورحلة عودته إلى بلاده فيقول « في غضون 8 أيام، قام القنصل (الهولندي) بافتداء 8 أسرى آخرين من هامبورغ، وقد دفع في مقابل كل شخص واحد 1500 ثالر (Thaler)؛ كان هناك أيضًا شخصا قضى بالفعل ستة وثلاثين عامًا في العبودية هنا وكان عليه أن يرى وطنه مرة أخرى وهو في شيخوخته. ورأى القنصل أيضًا أن الداي تلقى نصيبا من النقود المناسبة لافتدائه، وتلقيت في المقابل مذكرة فراي (Frey-Zettel)، والتي تحميني من أي عبودية أخرى في رحلتي إلى المنزل،لقد أمضينا 27 يومًا مع القنصل.أخيرًا، وصلت سفينة تارتان (Tartane)فرنسية إلى هنا،وصعدنا على متنها.وفي 12 جويلية 1739،أبحرنا من مدينة الجزائر،والتي وطأتها قدمي لأول مرة في 27 أبريل 1725؛ كان وقت العبودية من 25 فبراير 1725،حصلت على حريتي، بعد 14عامًا،وشهرين،و 17 يومًا» .

وفي عام 1727 ظهر البحارة الجزائريون في منطقة ريد غراوندز (Roten Gruenden) أمام مصب نهر فيسير (Weser) إلى الغرب من هامبورغ. واستولوا على غاليوطة (Galliot) التي كان يقودها القبطان ميلشيرت ستينجراف (Melchert Steengrafe)وأخذوه هو ورجاله الستة إلى سوق العبيد في الجزائر. وعندما انتشر الخبر في بريمن، احتشد الناس أمام مبنى البلدية. كانت هناك إثارة في القاعة الكبيرة أيضًا ماذا يجب أن يفعل المرء؟ لم تكن هناك خبرة على الإطلاق في هذا المجال القرصاني. بالتأكيد، تم التعامل مع القراصنة من دونكيرك عدة مرات وعرفوا كيفية التعامل معهم بطريقة دبلوماسية. ونادرا ما أبحر ربان بريمن في البحر الأبيض المتوسط .

وأورد الباحث الألماني راسل في كتابه (Zwischen Sklavenkassen und Türkenpässen…) أحد نشاطات البحارة الجزائريين في سواحل المحيط الأطلسي حيث تمكنوا من الاستيلاء على سفينة تابعة لهيلغولاند خلال سنة 1730 كانت قد توقفت على الأرجح في هامبروغ وقيام صندوق العبيد بهامبورغ بافتدائهم فقال:« ... بعد نجاح صيد الحيتان (baleine) في غرينلاند (Groenland)، ذهبت إحدى الغليوطتين التابعتين لهيليغولاند -على الأرجح أنها توقفت في هامبورغ- إلى بلباو(Bilbao) في شمال إسبانيا لبيع زيت الحيتان هناك. خلال الرحلة، تم الاستيلاء على السفينة من قبل البحارة الجزائريين في عام 1730 وتم نقل الطاقم بأكمله إلى الجزائر الذين كانوا تحت قيادة القبطان بيتر لوهرس(Peter Luhrs).كان صندوق العبيد في هامبورغ يعمل بشكل جيد كالمعتاد وقدم المال لفدية الطاقم. ومع ذلك، كانت مفاجأة لدى هيليجولاند بعض الشيء،عندما علمت أن

عبيد هامبورغ، على عكس إخوانهم في كوبنهاغن، قدموا المساعدة ودفعوا فقط مبلغ 500 (Rd. Zahlte) لكل بحار».

ومن أجل افتداء الأسرى، أنشأ سكان هامبورغ منذ عام 1622 "Casse der Werke von Achten"، ((صندوق قطع الثمانية). خاص بالربان ورجال الدفة (timonier)، وهو نوع من التأمين يدفع فيه البحارة مساهماتهم بحيث تكون الأموال مخصصة لافتداء الأسرى.وفي وقت مبكر من عام 1624، أنشأت هامبورغ "صندوق العبيد" (Sklavenkasse). لجمع الأموال، والذي كان يهدف إلى تمكين البحارة من شراء حريتهم بشكل أساسي من مساهماتهم، والتي يمكن من خلالها شراء العبيد مجانًا. وكانت إدارة النقود والفدية بيد الأب العبد كلاس جيركنز (Klas Gerkens)، قائد الدفة الذي تم افتداؤه من الجزائر، والذي تولى هذا المنصب في عام 1748. ويذكر أنه ابن لرجل بحار مات في الأسر بالجزائر.

إلى جانب ذلك كان يتم جمع أموال الفدية في كنائس هامبورغ. التي تحتوي على حاويات تجميع وبجانبها شخصيات منحوتة مكبلة بالسلاسل، وفي وضع متواضع لمناشدة رواد الكنيسة على التبرع. تم حفظ مجموعة كاملة من هذه الشخصيات في متحف هامبورغ. وكانت أسعار الفدية تختلف حسب مكانة ومركز الشخص، حيث وضع البحارة في البحر الأبيض المتوسط تعريفة محددة لمطالب الفدية. فكانوا يطلبون ما يعادل 1000 Reichstaler لربان، و 700 Reichstaler لرجل دفة (timonier) أو نجار و 60 Reichstaler للبَحّارْ.

ونظرا لعدم وجود قنصل لهامبورغ في الجزائر، كان يتم افتداء الأسرى الألمان عموما والهامبروغيين على الخصوص في كثير من الأحيان من خلال وساطة القناصل الأوربيين المقيمين في الجزائر. فحوالي 1684 و 1685 أبلغ المقيم الهولندي في هامبورغ المدعو كويستن (Kuysten)، المجلس بأن هناك سلامًا بين هولندا والجزائر، وأنه يمكن إطلاق سراح أسرى مدينة لوبيك وهامبورغ بنفس سعر أسرى الهولنديين. حتى القرن الثامن عشر، كان القنصل الهولندي في كثير من الأحيان ما يقوم بافتداء الأسرى الهامبورغيين، كما قام القنصل الإنكليزي بالعملية أيضًا. وفي عام 1753 قام القنصل الهولندي في الجزائر بافتداء جميع العبيد من هامبورغ؛ وفي نفس العام أوصى القنصل السويدي في الجزائر للقيام بهذه الأعمال. أما بلويارت (Jean Jacques Ployart) القنصل الدانماركي في الجزائر تولى افتداء العديد من الأسرى خلال سنة 1759.